مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية
المجلد 16 العدد 2 (السداسي الأول 2024م)، ص.. 163- 190

سعيد النورسي وأسلوبه في الرد والإقناع من خلال رسالة المناظرات

Said Nursi and his method of response and persuasion Through the message of debates

د. محمد الهادي وناس*
جامعة الزيتونة (تونس)
medhedi543@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/08/22 تاريخ القبول: 2024/02/10 تاريخ النشر: 2024/06/30

ملخص:

يهتم هذا البحث بقضية الأسلوب في المناظرة عند بديع الزمان سعيد النورسي -رحمه الله- ويسعى إلى إبراز أهمية أسلوبه وطريقته في الرد والإقناع من خلال رسالته الموسومة ب: "المناظرات" والتي ألفها في مطلع القرن العشرين؛ محاورا ومناظرا فيها رؤوس القبائل في شرقي الدولة العثمانية في مواضيع دينية وسياسية شتى؛ ومظهرا في الوقت نفسه مهارة فائقة وقدرة عجيبة على الجدل، والمناظرة بأسلوب راق ومتميز.

ورغبة منا في استكشاف أسلوب هذا العالم التركي -المعروف ببديع الزمان وصاحب رسائل النور المترجمة إلى ما يفوق خمسين لغة حول العالم- يعقد الباحث ثلاثة مباحث وفق الآتي: يهتم في الأول بترجمة مقتضبة لسيرة الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي؛ قصد إبراز الجانب الجدلي والمناظرة في شخصيته؛ كما يتولى المبحث الثاني تسليط الضوء على مؤلفاته الموسومة ب: "رسائل النور" ولا سيما رسالة المناظرات؛ متناولا أهم المواضيع التي قاربها الأستاذ؛ لبيان الأدوات البلاغية الأسلوبية في الرد والإقناع في المبحث الثالث؛ والتي توسل بها في إفحام جميع محاوريه ومخالفيه.

الكلمات المفتاحية: أسلوب – الإقناع - الرد - رسالة المناظرة، سعيد النورسي.

* المؤلف المرسل

Abstract:

This research deals with the issue of the method in debating of Bediuzaman said al-Nursi - may Allah have mercy on him - and seeks to highlight the importance of his style and method of response and persuasion through his thesis tagged with: "Debates", which he wrote at the beginning of the twentieth century; where he was having dialogues and debates whith the heads of the tribes in the east of the Ottoman Empire and discussed various religious and political issues; And at the same time, He showed a great skill and an amazing ability to debate in an elegant and distinguished manner.

Desiring to explore the style of this Turkish scholar - known as Bediuzaman and the author of the Risalat al-Nur wich is translated into more than fifty languages around the world - the researcher conducts three investigations according to the following:

The first is concerned with a brief translation of the biography of Bediuzzaman said al-Nursi; intended to highlight the dialectical side of his personality; The second topic The second topic also sheds light on his books tagged with: "Risale Nur", especially the message of debate; Addressing the most important topics approached by Nursi; To show the stylistic rhetorical tools in response and persuasion. in the third top iç; which he begged to convince all his opponents.

Keywords: Method - Persuasion - Response - Message of debate - Said Nursi.

مقدمة:

عرفت فترة أواخر القرن التاسع عشر تدهورا واضحا في المشهد السياسي للدولة العثمانية؛ والتي كانت تعاني من مكائد ومؤامرات الأعداء عليها في الداخل والخارج مما جعل السلطان عبد الحميد الثاني يعلن المشروطية سنة 1908م أي تأسيس النظام البرلماني لتكون الوزارة مسؤولة تجاهه، ويتولى صلاحية تشريع القوانين والدساتير إلخ. وهو ما حرّك موجة من الاختلاف والاضطراب حول هذه الخطوة الجديدة بين مستحسن لها، ومستقبح لظهورها .

وقد دفعت هذه الفوضى أهل العلم وأولو الألباب إلى الإدلاء بدلوهم في هذه المسألة وكان الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي – رحمه الله- على رأس هؤلاء الذين أخذوا على عاتقهم مسؤولية تمييز الحق عن الباطل ثم دعوة الناس إليه؛ فقام بجولات عديدة وغشي اجتماعات كثيرة يحاور القوم ويناقشهم في مفهوم المشروطية والحرية في الإسلام؛ سالكا في ذلك مسلك الاعتدال والوسطية؛ ومسترشدا بالنهج الإسلامي السليم من التعصب الذميم والمبرأ من اللهاث وراء الغرب والتقليد. وقد خلّف هذا العالم الجليل رسالة المناظرات شاهدة على أسلوبه الراقي والرصين في المناظرة مع مخالفيه مما يصلح أن يكون زادَ كل مناظر منافح عن الحق في هذا العصر.

فهل تمكّن الأستاذ النورسي من الوصول إلى إفحام مناظريه من رؤوس القبائل الشرقية في الدولة العثمانية؟ وإذا سلمنا بذلك فما الآليات التي توسل بها الأستاذ لتحقيق غايته في إقناع مناظريه، وتعديل أفكارهم وتصويبها؟

أولاً: نبذة مختصرة عن حياة سعيد النورسي

لعل من أصول المنهجية الرصينة الحديث عن معالم شخصية الأستاذ النورسيّ باعتباره منافحاً عن الحق، ومدافعاً عن القيم الإنسانية؛ وفي هذا الصدد تشير مصادر التراجم إلى المحطات البارزة في ظهور هذه الشخصية العالمية الفذة وفق الآتي:

أ. اسمه ونسبه

هو سعيد بن ميرزا ويعرف بالنورسي بضم النون نسبة إلى قرية "نورس" مسقط رأسه، كما يكنى أيضا بألقاب أخرى مثل سعيد المشهور وبديع الزمان، وذلك عائد لعدة أسباب حسب تقديري؛ ولعل أهمها يتمثل في تفوق سعيد النورسي في طلب العلم وإتقانه العجيب والمنقطع النظير مما جعل أستاذه الملا فتح الله يطلق عليه لقب بديع الزمان على غرار بديع الزمان الهمذاني. (ينظر: النورسي، 2012: 64-65)

وأما عن نسب بديع الزمان النورسي؛ فالباحث لم يعثر في السيرة الذاتية للأستاذ على ما يدل على تحلّيه بنسب شريف أو مقام عالٍ ؛ بل إن الأستاذ يقول إنه: " لا أنتسب إلى سلالة معروفة " (النورسي، 2012: 35)؛ غير أن التدقيق في المصادر التاريخية واستقراء مظانها يخبر بخلاف ذلك حيث يظهر أنه ذو نسب شريف يعود إلى النبي ﷺ وذلك بالاعتماد على شهادة شهود كثيرين نقلوا عن الأستاذ النورسي أنه : "كان قد ذكر في مجالسه الخاصة أن نسبه ينتهي من جهة الأب إلى الإمام الحسن، ومن جهة الأم إلى الإمام الحسين ﷺ، إلا أنه لم يصرح بذلك في رسائله حفاظا على أساس الإخلاص، وتجنبا عن إحراز مقام معنوي في نظر الناس" (شاهينر، 2012: 86/2) وهذا ما قررته الباحثة شكران واحدة في معرض حديثها عن نسب الأستاذ النورسي في كتابها الإسلام في تركيا الحديثة.(ينظر واحدة، 2011: 22).

ويُفهم من هذا النسب الشريف أن الأستاذ النورسي – رحمه الله- بطبيعته التكوينية الصوفية ، وامتداده الأسريّ المتدين كان يخشى التعلق بالألقاب الفانية، والأنساب الزائلة .

ب. مولده وأسرته

ولد سعيد النورسي سنة 1294هـ الموافق لـ 1877م في شرق الأناضول وتحديدا في قرية نورس التابعة لفضاء خيزان من أعمال ولاية بتليس لأبوين كرديين صالحين يشتغلان بالفلاحة. يعرف أبوه بالصوفي "ميرزا" لشدة تقواه وورعه وذلك ظاهر من خلال انضباطه في عمله وحرصه على إطعام أولاده اللقمة الحلال؛ فهو الذي كان يكمم أفواه مواشيه في عودته من المرعى كي لا تمس مزارع الناس بسوء. وتدعى أمه "نورية" عرفت بالوقار والتدين والحصافة والتقوى حيث لم تكن تفارق صلاة التهجد إلا في الأيام المعذورة فيها شرعا. ولم تكن ترضع أولادها إلا إذا كانت على طهر ووضوء. (ينظر: النورسي، 2012: 40). ويؤكد هذا الفضاء الأسريّ العريق شرف انتماء الأستاذ لنسب أصيل، ومنبت نبيل يتحرى الحلال في كل شيء.

وكان لسعيد النورسي ستة إخوة ثلاثة ذكور وهم على التوالي: عبد الله ومحمد وعبد المجيد وثلاث إناث وهن : السيدة درية والسيدة خانم والسيدة مرجان (أورخان، 2010: 25)؛ ومع هذا العدد من الإخوة والأسرة المتكاملة لم يحظ سعيد بمودتها ورؤيتها لوقت طويل حيث يخبر عن حرمانه السريع منها فيقول: "إنني لم أشاهد والدتي الرؤوف منذ التاسعة من عمري فلم أحظ بتبادل الحوار اللطيف معها في جلساتها فبتُ محروما من تلك المحبة الرفيعة ولم أتمكن من مشاهدة أخواتي الثلاث منذ الخامسة عشرة من عمري حيث ذهبن مع والدتي إلى عالم البرزخ فبت محروما من كثير من ألطاف الرحمة والاحترام". (النورسي، 2012: 41)؛ فشاءت الأقدار الإلهية أن يحرم الأستاذ النورسي من الدفء العائليّ، والمودة الأسرية، مما أثر في تكوين شخصيته نفسيا وعاطفيا وفكرياً؛ فقد عوضته رسائل النور النورانية ومحبة طلابها ومريديها هذا الحرمان العاطفيّ.

ج. نشأته

نشأ سعيد النورسي نشأة محبة للعلم، ترنو لتحقيق المعرفة والاستزادة من طلب العلم؛ ورغم فراقه المبكر لمعلمته الأولى لم يتوان النورسي عن التعلم والاجتهاد في تحصيله وقد ساعده على ذلك قوة ذكائه واتساع مداركه ودقة ملاحظته حيث كان دائم الاستفسار وكثير السؤال ولم يكن شيء أحب إليه من حضور مجالس الكبار والاستماع إلى حديثهم خاصة مجالس علماء قريته في ليالي الشتاء الطويلة (ينظر: badıllı ، 2012: 17) ومما يدل

على ذكاء سعيد النورسي وقوة عقله منذ الصبا عدم تسليمه بتفسير أمه لحادثة الخسوف حيث ناقشها في منطقية ذلك التفسير وينقل لنا تلك حكايةً فيقول: "عندما كنت صبيا خسف القمر فسألت والدتي ما الذي حدث للقمر؟ فقالت: ابتلعته الحية، قلت ولكنه يتبين، قالت: إن الحيات في السماء شفافة تشف عما في بطنها". (النورسي، 2012: 43)

هكذا كانت بداية سعيد الصغير في طلب العلم وقد حفزه على الطلب أكثر الرؤيا التي رآها حيث: "رأى كأن القيامة قد قامت ورأى الأنبياء وقبّل أيديهم واحدا واحدا حتى انتهى إلى النبي ﷺ وقبّل يديه الشريفتين وطلب منه العلم فبشّره الرسول ﷺ بقوله: سيوهب لك علم القرآن ما لم تسأل أحدا". (النورسي، 2012: 40).

فكانت تجليات التألق المعرفيّ بادية عليه منذ نعومة أظفاره، وإشارات السبق العلميّ ظاهرة على سلوكياته الروحيّة التي استمدها من الرؤيا الصادقة.

د. مؤلفاته

إن المتأمل في سيرة بديع الزمان النورسي يمكنه أن يميز بين مرحلتين مختلفتين في حياة هذا العالم الجليل أي: بين مرحلة سعيد القديم والتي غلب عليها الاهتمام بالحياة السياسية ومحاولة التأثير في نسقها العام إلى أن تمت ولادة سعيد الجديد في منفاه في قرية بارلا النائية سنة 1927م والتي أسفرت عن تأليف الكلمات والمكتوبات والشعاعات واللمعات؛ تصب كلها في محاولة إنقاذ الإيمان وخدمة الإنسان (ينظر: الصالحي، 2015: 58) وفيما يأتي تعريف موجز بمؤلفات الأستاذ النورسي في كلا المرحلتين.

1. مؤلفات سعيد القديم

أ- **صيقل الإسلام (560 صفحة)**: يضم هذا المجلد مجموعة من رسائل ومواضيع شتى تعرف بآثار سعيد القديم بينت المقالة الأولى مقاصد القرآن وتناولت الثانية علم البلاغة وتفرعاته. أما المقالة الثالثة فكانت للتدليل على واجب الوجود بمصاحبة علم المنطق وقواعده كما اشتمل هذا المجلد على الخطبة الشامية والتي تتناول أمراض الأمة الإسلامية؛ مقدمةً العلاجات المناسبة لها واختتم برسالة الخطوات الست والتي تعود لفترة احتلال الإنجليز للعاصمة استنبول رد فيها الأستاذ على المحتل ودعاويه الواهية، وبيّن أهمية الجهاد والمقاومة. (ينظر: النورسي، 2012: 554).

ب- **المثنوي النوري (527 صفحة):** اشتمل هذا المجلد على ثلاثة عشر رسالة وهو من تأليف الأستاذ بالعربية تطرق منذ البداية إلى الحديث عن الحكمة من جعل الأسباب ليفصّل القول في أسرار الحياة والكائنات ومسألة الموت جاعلا ذلك كله دليلا وطريقا للاستدلال على وحدانية الله تعالى وتحدث الأستاذ عن سيرة النبي ﷺ؛ مبيّنا شمائله ليبرز منابع علو القرآن؛ مبرزاً حقائقه مزيلا عنه الشبه والطعون وختم الأستاذ بالحديث عن أدوية الروح وعلاجاتها الضرورية من الأمراض النفسية والشهوانية. (ينظر: النورسي، 2012: 522)

ت- **إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز (304 صفحة):** هذا المجلد هو تفسير قيم لفاتحة الكتاب وثلاثين آية من القرآن الكريم ألفه الأستاذ بالعربية، وبيّن فيه الإعجاز النظمي للقرآن؛ مبرزا تفوقه على جميع الفنون والأساليب الأدبية الأخرى؛ ذاكرا إخفاق العرب الأقحاح في تحدي القرآن لهم بالإتيان بمثله من جهة ومبينا التناسب والتناسق والانسجام الدقيق بين جُمله وعباراته من جهة أخرى. وقد تعرض الأستاذ لبيان عدة أسرار في القرآن؛ دافعا بذلك شبهات المغرضين عنه مثل وجود المتشابهات والتعارض الظاهري بين العلوم الحديثة وإفادات القرآن الكريم. (ينظر النورسي، 2012: 300)

2. مؤلفات سعيد الجديد

أ- **الكلمات (940 صفحة):** يعدُّ المجلد الأضخم من كليات رسائل النور ، ويتكون من ثلاث وثلاثين رسالة أو كلمة تصب كلها في بيان مفهوم الإيمان والعبادة وغاية الإنسان ووظيفته في الوجود؛ وقد أثبت الأستاذ فيها الكثير من الأمور مثل حقيقة الحشر وحقيقة نبوة محمد ﷺ ووضّح فيها ثروة حكمة القرآن ، وغناها، وفقر الفلسفة، وإفلاسها كما أظهر أن معجزات الأنبياء تحث الإنسان على التقدم في مضمار العلم. وقد خصص الأستاذ رسائل مستقلة تتناول وجوه إعجاز القرآن وأخرى تبين القدر الإلهي والجزء الاختياري للإنسان تعقبها رسائل في ماهية الإنسان "أنا" وأسرار حركة الذرات ووظائفها. (ينظر :النورسي، 2012: 932)

ب- **المكتوبات (656 صفحة):** يضم هذا المجلد ثلاثة وثلاثين مكتوبا بدأها النورسي بإيراد بعض مشاهداته وتأملاته الإيمانية في كتاب الكون ؛ مشيرا إلى أهمية العناية بالإيمان في عصرنا الحديث ثم انبرى لتجلية الفرق بين الكرامة والإكرام ووضح الفرق بين الإيمان

والإسلام ؛ ثم تناول قضية وجود الشر، والحكمة من خلق الشياطين كما اهتم الأستاذ بمعالجة مسألة عدالة الأحكام الشرعية ؛ داحضا الشبهات حولها ، ومفنداً بعض المقولات المجانبة للصواب مثل وحدة الوجود الصوفي والفلسفي؛ داعيا إلى تكريس منهج عادل سوي في تناول الاختلافات ونبذ التعصب بكل أشكاله. (ينظر : النورسي، 2012: 650).

ت- **اللمعات (590 صفحة):** اشتمل هذا المجلد على ثلاثين لمعة صدّرها النورسيّ برسالة في مناجاة سيدنا أيوب ويونس- عليهما السلام - ؛ مقتبسا منهما الفوائد والعبر ليشرع في بيان منهاج السنة النبوية مبينا أهمية التمسك بها، ونبذ البدعة كما فصّل الأستاذ القول في خصائص المعراج إلى المعرفة الإلهية ؛ واهتم بالمدنية الغربية مبينا محاسنها ومساوئها في رسالة مستقلة سماها برسالة الطبيعة قام فيها الأستاذ بالرد على الطبيعيين ؛ مفندا شبهاتهم، ومبيّنا ضعف مقدماتهم حول بداية الخلق ؛ كما تعرض إلى الاسم الأعظم بالشرح ؛مبينا قبسات من أسماء الله الحسنى مثل العدل، الحكم، الفرد، الحي، والقيوم. (ينظر :النورسي، 2012: 584)

ث- **الشعاعات (717 صفحة):** يتضمن هذا المجلد خمسة عشر شعاعا اهتم فيها الأستاذ بحقيقة وحدانية الله تعالى ومدى أهميتها في مشاهدة جمال الكون ، وبروز مزايا الإنسان حيث يكون الأثر دليلا وسائقا إلى حسن المؤثر وجَماله ؛كما أفرد الأستاذ رسالة سماها بالآية الكبرى ذكر فيها براهين وجود الله ودلائل وحدانيته بشكل مفصل؛ كما بيّن الفرق بين حقيقة الوحي والإلهام ووضّح من خلال رسالة أهمية الإيمان بالآخرة في حياة الإنسان الشخصية والاجتماعية ثم بيّن الحكمة من التكرار في القرآن الكريم ؛ معقّباً بذكر بعض مرافعاته في محكمة دينزلي وأفيون. (النورسي، 2012: 712)

ج- **الملاحق (440 صفحة):** يجمع هذا المجلد ثلاثة كتب مستقلة في الأصل هي ملحق بارلا، وملحق قسطموني وملحق أميرداغ وكل ملحق هو عبارة عن شاهد حي عن معاناة الأستاذ وكفاحه وجهاده. والملاحق في حقيقة الأمر هي عبارة عن رسائل دارت بين الأستاذ وطلبته الأوائل؛ ويطغى عليها الطابع الدعوي الذي يخاطب الأعداء والأصدقاء وفيه رفع للعزيمة والهمة ومداومة الصمود في الخدمة القرآنية ورد هجمة الزندقة والإلحاد العنيفة. (ينظر : النورسي، 2012: 434)

ح- **سيرة ذاتية (654 صفحة):** يحتوي هذا المجلد على عدة فصول تتناول نشأة الأستاذ النورسي العلمية والفكرية والدعوية ومراحل حياته كلها بما فيها سعيد القديم وسعيد الجديد وفق ما اقتضاه الجمع ومراعاة التسلسل التاريخي لسيرته من قبل المحقق إحسان قاسم الصالحي. (ينظر النورسي، 2012: 649).

5. وفاته

لبّى الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي نداء ربه في شهر رمضان من سنة 1379هـ الموافق لسنة 1960م في مدينة أورفة عن عمر ناهز الثمانين سنة، ودفن في الفناء الخارجي لجامع خليل الرحمن؛ غير أنه بعد حوالي خمسة أشهر من رحيله قام العساكر الإنقلابيون بنبش قبره ، ونقل رفاته إلى مكان مجهول.(ينظر : الصالحي، 2015: 87).

6. ثناء العلماء عليه:

تتجاوز شخصية الأستاذ النورسيّ إطار المدح والثناء المعروف في الحديث عن الشخصيات إلى إقرار صادق، واعتراف شريف بفضل هذا العالم الربانيّ في مجال الدعوة والفكر والإصلاح؛ ونظرا لكثرة الشهادات وتنوع مصادرها ، واختلاف جنسيات أصحابها نسوق الشهادات الآتية لعلها تفي بالغرض المقصود من تجلية حقيقة مقام هذا الأستاذ في مسار الدعوة إلى الله تعالى .

أ- **شهادة العلاّمة محمد سعيد رمضان البوطي (ت 2013 هـ)** : يقول البوطي-رحمه الله-

"كانت صلته بالناس الذين يرشدهم ويربيهم عن طريق رسائله التي يكتبها إليهم فتنتشر فيما بينهم، أما هو فكانت تتلقاه السجون سجنا إثر سجن، لا يتأتى له إلا نادرا الجلوس إليهم والتحاور معهم. ومع ذلك فقد أثمرت جهوده هذه كمًا لم تثمر جهود أي جماعة إسلامية أو حزب إسلاميّ، اتخذ من السياسة سلما للبلوغ به إلى عقول الناس وأسماعهم. ها أنتم ترون اليوم ثمار تربيته الروحية والسلوكية، يانعة متجددة على عرض هذا المجتمع وطوله يبدد ضياءه الساطع ما تراكم من ظلمات الجهالة والفسوق والإلحاد". (البوطي، 2006: 12)

يفهم من كلام البوطيّ – رحمه الله- أن الأستاذ النورسيّ سلك مسلك التربية والإرشاد الدعويّ بمعزل عن الأطماع السياسية التي تحرّك الأحزاب؛ وإنما هي دعوة روحية وتربوية أزاحت ظلمات الجهل والانحراف ، والمروق عن الدين.

ب- شهادة الأستاذ الدكتور المغربيّ طه عبد الرحمان :

"إن البعد الذي يكتسبه إنتاج بديع الزمان لا ينحصر في تركيا حيث آثار الفلسفة الكانطية قد فعلت فعلها وبدلت قيم أهلها تبديلا، ولا هو ينحصر في الأمة الإسلامية التي تفككت أوصالها وفقدت وجهتها، وإنما يتعدى ذلك إلى العالم بأسره لينقذ الإنسان خاصته وعامته، من سلطان فكر فلسفي أضرّ بوجوده في هذا العالم، ومن كان هذا عمله فما أجدر به أن يكون من حكماء العالم الذين رفعوا همة الإنسان إلى الاضطلاع بأمور روحه كاضطلاعه بأمور جسمه، ومهدوا الطريق إلى تجديده". (عبد الرحمان، 2010: 42).

هي شهادة من كبار فلاسفة اللغة في المغرب العربيّ ؛ العلامة طه عبد الرحمان – فسح الله في مدته- ؛إذ نظر إلى جهود الأستاذ من منظور العالمية التي تخترق المحلية والإقليمية إلى فضاء كونيّ خالٍ من فلسفة مادية طاغية على سلوك البشر وتفكيرهم.

ت- شهادة الباحث أحمد آق كوندوز :

" لقد سار مؤلف رسائل النور الأستاذ النورسي مثل الإمام الغزالي وجلال الدين الرومي والإمام الرباني وأمثالهم بعين القلب والروح والعقل مفتوحة ووجد بدرس القرآن وإرشاده طريقا للحقيقة وسار فيه، حتى إنه أثبت من خلال رسائل النور حقيقة "وفي كل شيء آية تدل على أنه هو واحد" بكمال الوضوح".(آق كوندوز، 2012: 73)

ظاهر من شهادة الباحث أحمد آق أن النورسي استمد فكره وروحه من الاقتداء بكبار العلماء المسلمين ؛ مستنداً إلى القرآن بوصفه السبيل الموصل إلى حقيقة الألوهية .

ث- شهادة الأستاذ الدكتور التونسيّ عبد المجيد النجار:

"إنّ منهج النورسي في التّقرير العقدي لمفهوم الإنسان من شأنه أن يؤسّس فرعاً من فروع علم العقيدة، ينظّر للإنسان موضوعاً قائماً بذاته، ليكون مرجعاً لكلّ ما يُبنى من نظم في نطاق مشروع النّهضة الإسلامية، وليفعّل إرادة المسلم بما يصبح للبعد العقدي من مدخل في تصوّره لحقيقة نفسه، وبما يكون للاستدلال العملي ببيان المنفعة الواقعيّة للعقيدة التّصديقيّة النظرية من استنفار للنزوع إلى المبادرة والفعل والإنجاز، فيصحّ إذن في حال المسلم الفكر والعمل معاً، وتلك هي الشروط الضروريّة التي لا تكون نهضة بدونها".(النجار، 2006: 9).

يرى العلامة التونسية المفكّر عبد المجيد النجار -دام توفيقه- أن المدخل الطبيعيّ لأي نهضة إسلامية هو العقيدة السليمة التي تنطلق من تصور الإنسان لماهية نفسه وحقيقتها وعلة وجودها ؛ وهو تصور يفضي إلى تجسيد العقيدة في سلوك المسلم وشعائره التعبديةّ، والتعاملية .

ثانياً: فن المناظرة عند بديع الزمان النورسي

أ. أهمية المناظرة عند النورسي

المتأمل في سيرة الأستاذ بديع الزمان النورسي يلاحظ اهتمامه المبكر بالمناظرات والمناقشات العلمية؛ فهو الذي كان يحضر مجالس الكبار في ليالي الشتاء الطويلة؛ مستمعا ومصغيا لما يدور بين علماء قريته من مسائل وقضايا علمية ؛ وهو ما صقل موهبته وبسط مهارته في الجدل والمناظرة وخاصة لما يقف الباحث على ما تلقاه هذا الشاب المجتهد من العلوم العقلية مثل المنطق والفلسفة وعلم الكلام ولا سيما علم الجدل والمناظرة. فقد ذكر الدكتور أحمد آق كوندوز أن النورسي اطلع على كتب مهمة في هذا الفن مثل كتاب "علم الجذل في علم الجدل" لنجم الدين الطوفي (ت 716هـ) وكتاب "المنتحل في الجدل" لأبي حامد الغزالي (ت 505هـ) و"أدب البحث والمناظرة" لعضد الدين الإيجي (ت 756هـ). (ينظر: Akgündüz، 2013: 5).

ولا ريب أن هذه المصادر التراثية في علم الجدل مكّنت الأستاذ النورسي من اكتساب مهارة الجدل والمناظرة؛ فضلاً عن مجالسته لكبار العلماء في صغره ؛ مستمعاً ومستمتعاً بأصول المناظرة وآلياتها .

وقد نشأ بديع الزمان النورسي نشأة علمية قوية تستوعب المتون العلمية حفظاً وفهمًا وقد ساعد النورسي في ذلك قابليته الفريدة في التلقي حيث نال إعجاب جميع أساتذته .ولعل أستاذه الملا فتح الله أفندي أكثر من التعبير عن ذلك حيث كتب على غلاف كتاب جمع الجوامع في أصول الفقه لابن السبكي (ت 756هـ) بعد أن درَّسه لتلميذه سعيد "لقد حفظ جمع الجوامع جميعه في جمعة " (النورسي، 2012: 44) بل إن شيخه محمد أمين كلّفه بنبذ زي الدراويش والتزي بزي العلماء لما رأى فيه من أهلية علمية؛ فردّ عليه النورسي الصغير الجريء "إنني لم أبلغ بعد الحلم فلا أجدني لائقا بلبس ملابس العلماء وكيف أكون عالما وأنا ما زلت صبيا ؟ ". (النورسي، 2012: 45).

مرافقة أساتذة النورسي لتلميذهم الصبيّ لها أكثر من دلالة تصب كلها في إدراكهم لمعالم شخصية علمية سوف يكون لها -مستقبلاً - شأن عظيم ؛كما أن حرص الأستاذ على مجالسة أساتذته ورغبته الصادقة في النهل من معينهم الفياض عمّق قناعاتهم بألمعية هذا المتعلم الفذ الذي بزّ أقرانه ذكاءً وفطنةً .

ولقد دأب المنهج التعليميّ في شرق تركيا قديما على أسلوب المناظرة حيث كان الطالب يومئذ ملزما بالإجابة عن ما يُطرح عليه من الأسئلة بصفة شفاهية؛ فكأنما يدخل في مناظرة صغيرة مع أستاذه ؛ وفي هذه البيئة تطور وعي الأستاذ النورسي بأهمية المناظرة والتي كان يعدها سبيلا لإثراء المعرفة وتقوية المدارك وتوسيع الآفاق ويذكر الباحث كريم بالجي بأنه : "كان يقصد في شرق الأناضول وهو في السابعة عشرة من عمره، وكان يقوم بمناظرات مع العلماء. ولكن ليس لإثبات قدرته العلمية وتفوقه فيها، بل لإحياء علم الجدل والمناظرة من جديد " . (الصالحي، 2016: 67) .

وتفطن الأستاذ النورسي إلى أهمية المناظرة والمحاورة ودورها في ترشيد الرأي وتصويب الفكر؛ فتوسل بها سبيلا قويما يبتغي به تحقيق طموحات شعبه في تحصيل المعرفة، والتزود بالعلم ؛ ولذلك نقرأ في السيرة الذاتية للنورسي حدثَ زيارته لاسطنبول سنة 1907 م للحصول على دعم القصر العثماني لمشروع مدرسة الزهراء حيث التقى بثلة من العلماء تبادل معهم الآراء والأفكار ليقنعهم بضرورة إنشاء هذه المدرسة في الشرق والتي تجمع بين تعليم العلوم الدينية والعلوم الحديثة. (ينظر : النورسي، 2012: 169)

يذكر الأستاذ الدكتور جورج جريجوره في معرض حديثه عن مشروع الأستاذ النورسي في إنشاء مدرسة الزهراء أنه بعد أن مكث في منزل أحد أحبائه مدة شهرين استأجر بديع الزمان شقة في خان شُكرجي في منطقة فاتح باسطنبول، حيث كان ملتقى الكثير من المفكرين والأدباء، وهناك دارت بينهم مناقشات ومناظرات علمية متنوعة برهنت على تفوقه، ليعلق لوحة على باب غرفته في خان شكرجي الذي يقيم فيه وكتب فيها "هنا تحل كل معضلة ويجاب على كل سؤال من دون توجيه سؤال لأحد".(الصالحي، 2016: 53)

وهكذا يمكن القول إن النورسي كان سبّاقا لعقد المناظرات والمناقشات العلمية حيث كان يبادر دوما لعقدها كلما دعت الحاجة إلى ذلك، والاستفادة من مخرجاتها ويذكر في لمعاته أنه كان يدعو العلماء وأهل المدارس الحديثة في اسطنبول -قبل إعلان الحرية بستة شهور- إلى المناظرة والمناقشة، والإجابة عن أسئلتهم دون أن يسأل أحدا شيئا، فأجاب عن جميع استفساراتهم إجابة شافية صائبة. (ينظر : النورسي، 2012: 242).

فالمناظرة آلية فعّالة في تحريك الذهن، وصقله لبلوغ ملكة إقناع الخصم ؛ ولعل دعوة الأستاذ المبكرة أهل المدارس للمناظرة دليل على وعي أصيل بثمار المناقشة ؛ لقدرتها على إثراء المنظمة الفكرية للناس.

ويوصي الأستاذ النورسي بأن المناظرة تؤتي أكلها، وتثمر كلما وقع الالتزام فيها بدستور الإنصاف، وابتغاء الحق؛ مشيرا إلى قاعدة جليلة في هذا الفن عند العلماء المبرَّزين مفادها بأنه: "إذا أراد المرء أن يظهر الحق على لسانه دون غيره -في مناظرة معينة- وآنس لذلك واطمأن أن يكون خصمه على باطل وخطأ فهو ظالم غير منصف فضلاً عن أنه يتضرر نتيجة ذلك لأنه لم يتعلم شيئا جديدا -من تلك المناظرة- بظهور الحق على لسانه، بل قد يسوقه ذلك إلى الغرور فيتضرر"(النورسي، 2012: 219). ويواصل الأستاذ شرح فكرته معتبرا أنه "إذا ظهر الحق على لسان خصمه فلا يضره شيء ولا يبعث فيه الغرور بل ينتفع بتعلمه شيئا جديدا. أي إن طالب الحق المنصف يسخر نفسه لأجل الحق، وإذا ما رأى الحق لدى خصمه رضي به وارتاح إليه ". (النورسي، 2012: 219).

قاعدة نفيسة في علم المناظرة تؤسس لروح المناقشة الهادئة والمنتجة؛ وهي الإقرار للخصم بالفضل في بيان الحق إن كان صوابا؛ وعدم انفراده بالحق دون غيره؛ بل إن الفضيلة الخلقية تتطلب الاعتراف للخصم بالسبق؛ ولا تغمطه حقه .

فالانفراد بإظهار الحق دون الخصم ظلم وتعسف وجور؛ لأنه يفضي إلى الغرور والاعتداد بالنفس في المناظرة .

فلابد للمناظرِ أن يدور حيث دار الحق، ولا تأخذه حظوظ النفس بعيدا عن المناظرة العادلة.

وهذه القاعدة الثمينة التي ذكرها الأستاذ من صميم آداب الجدل في الفكر الإسلاميّ؛ إذ يؤكد الإمام الجويني أن مراعاة مقام الخصم، والاعتراف له بفضل السبق وعدم استصغاره من أصول المناظرة الرصينة ؛وفي هذا الصدد يقول: " ولا يستحقر أحدهما صاحبَه بما يقع له من الخطأ في مذهب أو دلالة أو غير ذلك؛ فإنه إذا اغتر بخطئه ربما أصاب فيما لا خروج له عنه ". (الجويني ، 1979: 541) .

ب. التعريف برسالة المناظرات

تعد رسالة المناظرات من آثار سعيد القديم، وقد ألّفها الأستاذ النورسي قبل أن ينفى إلى بارلا حيث وقع مولد سعيد الجديد؛ ولذلك طبعت هذه الرسالة ونشرت مع باقي الآثار الأخرى القديمة ضمن مجلد أسند له عنوان صيقل الإسلام لتمتد على ما يقارب ستين صفحة من الحجم الكبير ؛ والطبعة تعود لدار سوزلر صاحبة الفضل في طباعة هذه الرسالة أيضا طبعة مستقلة لتقع على ما يقارب المائة وعشر صفحات ذات الحجم الصغير.

ويعود السبب المباشر لتأليف هذه الرسالة كما يخبر الأستاذ إحسان قاسم الصالحي-أدام الله عزّه - مترجم هذه الرسالة ومحققها إلى حدث إعلان السلطان عبد الحميد الثاني للمشروطية بمعنى: "تأسيس النظام البرلماني في الدولة العثمانية سنة 1908م والتي أصبحت بموجبها الوزارة مسؤولة تجاه البرلمان وليس تجاه السلطان كما أن صلاحية تشريع القوانين غدت من اختصاص البرلمان وأطلقت على إثرها حرية العمل السياسي وحرية الصحافة وغيرها ". (النورسي، 2012: 355).

ترتَّب عن هذا الحدث السياسيّ تباين وجهات النظر في مشروعية هذه المشروطية بين مادح يرى أن المشروطية نعمة، وذام لها لا يحسبها سوى نقمة، ومتحفظ لا يستطيع الحكم على هذه المشروطية أ شر هي أم خير؟. وبعبارة أدق أ جور واستعباد أم حرية وانعتاق ؟. الأمر الذي حدا بالأستاذ النورسي وهو العالم المهموم بهموم أمته إلى بيان هذه المسألة، وتوضيحها في أذهان الناس " فناصر مفهوم الحرية والشورى ضمن ما هو واضح في الإسلام ودافع عن المشروطية المحددة بحدود الشرع فكتب مقالات عديدة في الصحف المحلية آنذاك وألقى كثيرا من الخطب مبينا مفهوم الحرية والشورى في ضوء الإسلام ومحذرا من التعصب المقيت والتقليد المشين ". (النورسي، 2012: 356)

فالمشروطية التي حرّكت خلاف الناس نظر إليها الأستاذ من منظور القرآن، وعدالة الإسلام؛ بعيدا عن التزمّت والاستبداد بالرأي، والتسلط والإكراه.

ولم يقتصر توضيح الأستاذ النورسي للحرية والشورى للسياسيين والمفكرين من المنظور الإسلاميّ فحسب؛ بل عمل أيضا على توجيه خطابه للعوام "وتوجه إلى شرقي الأناضول سنة 1910م وبدأ بجولة واسعة بين مختلف العشائر الكردية والتركية، وعقد معهم اجتماعات وندوات يجري فيها مناقشات حول أمور اجتماعية وسياسية، وبين لهم صلاحية "المشروطية" بالمفهوم الإسلامي". (النورسي، 2012: 356).

ولا ريب أن مبادئ الحرية والشورى في رحاب الشريعة الغراء تتطلب وعيا عاليا وهمة سامية لإقناع المفكرين، والعوام بمشروعية هذه المبادئ وأصالة عدالتها؛ وهذا ما أنجزه الأستاذ في ظل عقد اجتماعات وندوات؛ وهي فضاءات منتجة للمناظرة الحقة.

ويشرح الأستاذ إحسان طريقة كتابة رسالة المناظرات قائلا: " دون الأستاذ النورسي تلك المحاورات بالتركية في رسالة طبعها في مطبعة "أبو الضياء" باسطنبول سنة 1931م، ونشرها تحت اسم "بديع الزمانك مناظراتي" (مناظرات بديع الزمان) ثم ترجمها إلى العربية بنفسه ونشرها تحت عنوان "رجتة العوام" أي الوصفة الطبية للعوام. وجاءت تلك الترجمة مبهمة مغلقة العبارات، فاضطر الأستاذ أن يكتب في مقدمتها "معذرة طويلة الأذيال" جاء فيها قوله "إن هذه الرسالة العربية ترجمتها من التركية، التي ترجمتها من الكردية، التي ارتجلتها لأسئلة الأكراد القرويين. فالمترجم من المترجم من المرتجل، من أمي (يقصد نفسه) لقرويين، لا يتملس ولا يخلص من خشونة في المعنى واللفظ". (النورسي، 2012: 356).

وهي مسوغات مقنعة؛ وليست تعبيراً عن قصور في فكر الأستاذ للأسباب الآية :

- الترجمة مهما بلغت درجة عالية من الدقة لا تفي بالغرض المقصود ؛خاصة أن هذه المحاورات ترجمت من التركية إلى الكردية إلى العربية .
- المخاطبون بهذه المحاورات من عوام القرويين؛ ولا يخفى على ذوي الاختصاص في علم الجدل أن العوام أبعد عن إدراك مقولات المناظرة وأصولها.

- ولهذين السببين اعتذر الأستاذ من خشونة اللفظ والمعنى في ترجمة المحاورات؛ لأن طبيعة المحاورة تقتضي جهدا ذهنيا لإقناع العوام بلغة تجمع بين البساطة والتعقيد؛ وهما غايتان متباعدتان.

وقد حوتْ هذه الرسالة على محاورة ومناقشة طويلة بين الأستاذ النورسي ورؤوس العشائر الكردية تضمنت أربعة وتسعين سؤالا وجوابا متفاوتة طولا وقِصراً تناولت بالأساس مواضيع سياسية ودينية مثل: حدث المشروطية، وحقيقة مفهوم الحرية، والشورى في الإسلام حيث قدَّم الأستاذ النورسي الجواب الشافي لها ؛ كما تطرق الحوار إلى مسائل أخرى مثل: مشروع تأسيس مدرسة الزهراء في شرق الأناضول بهدف نشر العلم وتنوير تلك الأوساط: " فقد كان جل اهتمام النورسي منصبا في تحطيم قيود اليأس وكسر أغلال القنوط التي كبلت الناس وكان يحاول جهده أن يشعل بصيص الأمل وبريق الرجاء في نفوسهم فضلا عن وضعه لهم موازين شرعية ومنطقية لوضع الأحداث المستحدثة بعقلية متوازنة إيمانية هادئة بعيدة قدر الإمكان عن الانفعالات وردود الفعل". (النورسي، 2012: 357)

ومن ثم سلك الأستاذ النورسي في محاورة مناظريه مسلكا ميسورا مستساغا نظرا لمستوى المخاطب ومقامه المعرفي؛ فلم يشكل العبارة ولم يفلسف المعنى بقدر ما كان عفويَ الخطاب قريبا من أذهان مخاطبيه؛ ولذلك يمكن القول إنه: لم ينجح في الرد على استفساراتهم فحسب ؛ وإنما استطاع أن يقنعهم بما توصل إليه من أفكار واستشرافات سواء على الصعيد السياسي والاجتماعي. فما الآليات التي اعتمدها النورسي في الرد على مخاطبيه وإقناعهم؟.

ثالثا: آليات النورسي في الرد والإقناع من خلال رسالة المناظرات

يحضر اصطلاح المناظرة في مؤلفات الأستاذ النورسي بصفة صريحة واضحة تارة، ويشار إليه تارة أخرى بذكر بعض مرادفاته من قبيل المحاورة، المناقشة ،الجدال المذاكرة، النقاش، والحوار، وهو ما يحيلنا على المعجم الحواري الثري الذي تشتمل عليه رسائل النور. والحقيقة أن مؤلف هذه الرسائل رجل يؤمن بالحوار والحجاج والإقناع ولا يدعو إليه فحسب؛ بل كان يمارسه في الوقت نفسه فتراه مناظرا ومحاججا ومحاورا بارعا يفصح عما يخالجه من أفكار وآمال وطموحات (ينظر: العزاوي، 2014: 3). وذلك ما حاول تثبيته في قلوب محاوريه في قبائل شرق تركيا؛ مستثمراً ما بجعبته من أساليب وأدوات بلاغية في سبيل ذلك مثل: ضرب المثال، وأسلوب الاستفهام والتفصيل والتقسيم والإيجاز، والإسهاب، والنداء.

أ. ضرب المثال أو التمثيل:

يُعدُّ التمثيل من أكثر الأدوات البلاغية أهمية عند أهل الفصاحة والخطباء ؛ نظرا لما يحتويه من خصوصية بيانية؛ فالتمثيل كما يعرّفه عبد القاهر الجرجاني " التمثيل ضرب من ضروب التشبيه، والتشبيه عام والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلا ". (الجرجاني، 2005: 75) ويشير صاحب البلاغة الواضحة إلى الفرق بين التشبيه والتمثيل بقوله "يسمى التشبيه تمثيلا إذا كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد، وغير تمثيل إذا لم يكن وجه الشبه كذلك". (الهاشمي، د.ت، 245)

ولا غرو أنَّ للتمثيل قدرة عجيبة ودورا مهما في التأثير في المخاطب وإقناعه؛ لأن التمثيل يقرب المعنى المتخيَّل من الأذهان؛ وقد قيل قديما بالمثال يتضح الحال فالتمثيل "ينقل النفس من الشيء المدرك بالعقل المحض، وبالفكرة في القلب، إلى ما يدرك بالحواس أو يعلم بالطبع وعلى حد الضرورة". (الجرجاني، 2005: 94).

فالتمثيل آلية أسلوبية قادرة على إحضار الغائب المجرد كأنه محسوس؛ ولهذا كثر التميل في القرآن الكريم ؛لتجسيد المعنويّ والذهنيّ وتمثيله أمام حواس المتلقي .

ولم يتخلف بديع الزمان النورسي في مناظرته مع رؤوس القبائل في شرق تركيا عن استعمال التمثيل؛ بل يلاحظ المتصفح لهذه الرسالة اعتماد الأستاذ على هذه الأداة البلاغية في أكثر من موضع في محاورة مخاطبيه. ولعل أهم مثال ضربه النورسي في رده على أول سؤال وجه له وافتتحت به المناظرة : "إذا لم يكن على الدين الضرر فليكن ما يكون ولا نبالي " (النورسي، 2012: 361) حيث رد الأستاذ بأن الأوْلى أن نقوم بحماية الدين بأنفسنا وأن لا ننتظر ذلك من أحد ولا سيما إذا كنا لا نقدر على الاعتماد على أحد.

ويشفع النورسي رده هذا بمثال من واقع حال المخاطبين ليقرب المعنى من أذهانهم قائلا: "سأضرب لكم مثلاً : أنتم من البدو، رأس مالكم الغنم -وأنتم أعلم بأموركم- فقد عهد كلٌ منكم قسما من أغنامه إلى راعٍ، بينما الراعي كسلان ومعاونه متهاون متكاسل وكلابه جبانة، فإن اعتمدتم عليه ونمتم براحة في بيوتكم، ضلّت أغنامكم الوادعة تحت سطوة الذئاب الضارية واللصوص والمصائب والبلايا. أ هذا الأمر أولى أم التفطن إلى عدم كفاءة الراعي لحمايتها، فينطلق كلٌ منكم من مسكنه كالبطل منتبها من نوم الغفلة، ساعيا إلى الحفاظ على الأغنام، فتكونوا ألفا من الحماة المحافظين بدلاً من راعٍ واحد فلاَ يجرؤ عندئذٍ ذئبٌ ولا سارق على الاقتراب من غنمكم؟...". (النورسي، 2012: 361-362).

مثال حيّ ينطق بمحاكمة عقلية حصيفة مفادها: أن صاحب الشأن أولى برعاية شؤونه من غيره؛ لأن إسناد الأمر إلى غير أهله مدعاة للضياع ومجلبة للخسران ؛لأن الراعي غير مؤتمن على غنم غيره؛ ومن ثم تقتضي المصلحة العامة تكاتف أهل الشأن لرعاية أغنامهم بدل أن تعهد لغيرهم؛ ومن ثم فالرعاية الجماعية أحرص على حماية الممتلكات من فرد توكل له مهمة رعاية أمر مصيري؛ وهو غير حريص على ضمان سلامة الأمر المسند إليه .

يحضر ضرب المثال في مناظرات النورسي متى دعت الحاجة إليه في تبيين مشكل أو تبسيط مجرد أو تبليغ فكرة؛ ويمكن ذكر مثال عجيب ضربه النورسي لمناظريه يبين لهم فيه خطورة الوقوع ضحية الأفكار السلبية والتوهمات الخاطئة المُورِثة لليأس والخنوع مجيبا عن سؤال "نسمع كثيرا من الأخبار المؤسفة والحوادث السيئة لا سيما من غير المسلمين كأن تزوج أحدهم من غير مسلمة وكذا وكذا في مكان وكيت وكيت في مكان آخر وحدث ما حدث في مكان إلخ ".(النورسي، 2012: 375)

وبعد إقرار النورسي بوقوع مثل تلك الأحداث السيئة والمؤسفة -والتي يرجعها إلى عدم استقرار الدولة العثمانية حينئذ وانتشار الجهل- يورد مثالا يوضح به الصورة أكثر بقوله "إذا دخل أحدكم في بستان رائع جميل يشتمل على أنواع الأزاهير والثمرات، لأجل أن يتنزه فيه ويستجم ساعة من الزمان، وكان في بعض جوانب البستان بعض العفونات والنجاسات -حيث إن وجود النقص مع الكمال من مقتضيات هذا العالم وليس المبرأ من النقص إلا الجنة- فإنه لا يبحث ولا يتحرى إلا تلك العفونات ولا يديم النظر إلا إلى تلك النجاسات، لانحراف في مزاجه. وكأن ليس في ذلك البستان الباهر إلا تلك، ثم يتوسع ويتسنبل ذلك الخيال الفاسد بحكم التوهم والتخيل حتى يحسب أن ذلك البستان الرائع مسلخ قذر أو مزبلة وسخة، ويأخذه الدوار والغثيان، ويبدأ بالتقيؤ وينكص على عقبيه ". (النورسي، 2012: 375).

محاورة عميقة المغزى، بعيدة المعنى تقوم على تصويب الرؤية المنحرفة للأشياء؛ فالمظاهر السلبية ليست - من منظور هذه المحاورة العاقلة - محل اعتبار؛ لأنها نابعة من خيال فاسد مضطرب لا يحسن النظر؛ بل إن ميزان النظر القويم غض الطرف عن هذه النجاسات الجزئية التي تضر بجمال البستان وروعته .فالعفونة واردة في كل البساتين مهما بلغت درجة الإبداع في تصميمها وزخرفتها؛ بيان ذلك أن البستان المثالي لا وجود له إلا في الجنة؛ والنظرة المثالية للأشياء نظرة قاصرة عن ملامسة حقيقة الجمال .

ب. الاستفهام

كما يلاحظ المتأمل في ردود الأستاذ النورسي على أسئلة مخاطبيه الحضور المكثف للاستفهام التقريري والاستفهام الإنكاري على حد سواء، ولا يخفى ما للاستفهام من تأثير في نفس المتلقي وتعديل أفكاره مما جعل النورسي يعتمد عليه في مخاطبة مناظريه مراوحا بين تقرير المخاطب تارة، والإنكار عليه تارة أخرى.

يقول صاحب الطراز يحي العلوي اليمنيّ في تعريف الاستفهام " ومعناه طلب المراد من الغير على جهة الاستعلاء". (العلوي، 2002: الجزء الثاني : 158)

وقد توسل الأستاذ النورسيّ بالاستفهام بوصفه أداة فعالة في المناظرة ؛لأنه أسلوب إنشائيّ يتعلق بطلب غير حاصل وقت الطلب كالاستفهام، والأمر، والنهي، والنداء، والتمني.

ولعل من أبرز استعمالات الاستفهام التقريري التي توسل بها النورسي لإلزام مناظريه الذين يستنكرون مساواتهم مع غير المسلمين جراء إعلان المشروطية فما كان من النورسي إلا أن بين لهم أن المساواة لا تكون في الشرف والفضيلة وإنما في الحقوق موجها سؤاله متعجبا " فيا للعجب إن الشريعة التي نهت عن تعذيب نملة وأمرت ألا تداس عمدا، أتهمل حقوق بني آدم؟ كلا! ولكن نحن الذين لم نمتثل الشريعة. ألا تكفي لتصحيح خطئكم هذا، محاكمة أمير المؤمنين الإمام علي رضي الله عنه، مع يهودي فقير، ومرافعة صلاح الدين الأيوبي -وهو مدار فخركم- مع نصراني مسكين". (النورسي، 2012: 372)

فالاستفهام الوارد في كلام الأستاذ غرضه حمل المخاطبين على الاعتراف بفضل الإسلام في معاملة الموجودات معاملة إنسانية راقية عادلة لا ضيم فيها ولا جور. ومن ثم يعد الاستفهام التقريري أكثر أنواع الاستفهام تأثيراً في المتلقي لأن "غايته حمل السامع على الإقرار. ومن خصائصه أن يكون الكلام منفياً، فيخرج المعنى من الاستخبار إلى التقرير، وهو أمكن من التقرير الخبري وأبلغ في التوكيد". (الزناد، 1992، ص 112) .

هكذا تتبدى أهمية الاستفهام التقريري عندما يقرر الأستاذ النورسي المخاطب بشيء ثبت عنده فيخرج هذا التقرير بصورة الاستفهام ليكون أوقع في النفس وأدل على الإلزام (عباس، 1997: 194)، والحقيقة أن ردود الأستاذ تزخر بهذا النوع من الاستفهام ويمكن إيراد مثال عن الاستفهام التقريري الذي يفيد معنى التحقيق والتثبيت في بيان النورسي مفرقا بين خصال الشعب الأرمني والشعب التركي والكردي "ألا ترون -بحيرة شديدة- أن غير المسلمين قد سرقوا الكلمة البيضاء والخصلة الحمراء كأمثال: "إن متّ أنا فلتسلم دولتي ولتحي أمتي وأحبتي" التي هي أس أساس الكمال والرقي والتقدم الحاضر، بل هي مقتضى الدين المبين، ذلك لأن فدائيهم يقول: "إن متّ فلتحي أمتي، إن لي فيها حياة معنوية..." علما أن الكلمة الحمقاء والسجية العوراء التي هي أساس الذل والأنانية هي التي تقودنا وقد شلت همتنا وهي التي تتمثل بالعبارة الآتية إذا متّ ظمآن فلا نزل القطر". (النورسي، 2012: 389).

ففي قول الأستاذ (ألا ترون) استفهام تقريريّ يحمل الشعب التركي والكردي على الاعتراف بأن غير المسلمين قد سلبوا منا مبادئ الإسلام النبيلة، وشعاره الخالدة؛ حيث تغيرت الموازين واضطربت المفاهيم، وانحسرت الفضيلة، وضاعت القيم .

ولا يقتصر استعمال النورسي للاستفهام التقريري فحسب ؛ بل تجاوزه إلى توظيف الاستفهام الإنكاري والذي اعتمده الأستاذ في الإنكار على مخالفيه الذين يعتبرون أن اتفاق العلماء والشيوخ في عصرنا غير ممكن مادام ينكر بعضهم على بعض وباعتبار أن محبة المنكر محرمة في قواعدهم ودساتيرهم وهو ما جعل النورسي يرد بشيء من القسوة قائلا " أيها الحمقى أ ما سمعتم أو أما علمتم أن الآية الكريمة " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ " (الحجرات - 10) ناموس إلهي؟ وهل تعاميتم عن الدستور النبوي الكريم "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" (صحيح البخاري، باب الإيمان، رقم7) ؟ فيا للعجب كيف تتمكن أن تنسخ مسألة الإنكار هذه الواهية المترددة بين الصدق والكذب- هذين الأساسين العظيمين الضروريين؟". (النورسي، 2012: 396).

استفهام إنكاريّ شديد اللهجة بلغ درجة التقريع؛ للتعبير عن حال الأمة في تذبذبها وتناحرها واختلافها؛ والأصل بنص القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة اجتماع الأمة على كلمة واحدة؛ ومن ثم يجد الاستفهام الإنكاري عند الأستاذ مشروعية الخطاب المنكِر على تراجع الأمة الإسلامية في الوحدة والتضامن، وعدم الاتفاق وهو الأصل، وعليه مدار الطلب؛ ولهذه الآلية البلاغية تأثير محوري في الإنكار الذي يتجاوز حدود العتاب إلى التقريع: إذن "هو استفهام يفيد موقفاً هو للمتكلم من سامعه، يتمثل في أنه لا يقبل منه مضمون ذلك الاستفهام. وهذا الموقف على درجات أقصاها الإنكار أو التقريع وأدناها العتاب وما بينهما درجات تتلوّن وفق السياق". (الزناد، 1992: 115)

فالسياق هو الذي فرض التقريع باعتبار أن مسألة اتفاق الأمة واجتماعاها أولى من تفرقها وتنافرها .

ويواصل الأستاذ النورسي رده على مناظريه الذين يسوغون لمظاهر العداء والخصام بين أهل العلم والشيوخ فيقول منكرا عليهم "عجبا! بأي وجه حق، وبأي إنصاف وبأي سبب تغلبت أسباب العداء الناشئة من تصرفات غير مشروعة واهية كحجج الصبيان، وترجحت على أسباب المحبة العظيمة -كجبل سبحان- (جبل في شرقي تركيا) الناشئة من الإيمان والإسلام والإنسانية". (النورسي، 2012: 397)

وهو استفهام إنكاريّ تعجبيّ أيضا؛ يستمد قوته الحجاجية من كون القيم الإيمانية هي الجامعة، ومبادئ الإسلام السامية هي الضامنة لوحدة الأمة؛ في حين أن سلوكيات بعض المتدنيين تفتقد إلى حصافة الرأي، ورجاحة الفكر؛ ولهذا وصفها الأستاذ بالصبيانية.

ج. التفصيل والتقسيم

يعتمد الأستاذ النورسي في مناظراته مع رؤوس القبائل الشرقية على أسلوب التفصيل والتقسيم في كثير من الأحيان للإجابة عن الأسئلة الدينية الموجهة إليه؛ بغية توفير الإجابة الشافية الكافية فيتسنى له إقناع الطرف الآخر والتأثير فيه. ولعل أبرز مثال يظهر مهارة النورسي في توظيف أسلوب التفصيل رده على سؤال "إن قسما من أفراد جون تورك يقولون لا تخاطبوا النصارى بـ"يا كافر" استهانة بهم، فهم أهل كتاب لماذا لا نخاطب الكافر بـ أيها الكافر؟". (النورسي، 2012: 374)

يجيب النورسي عن هذا السؤال معتبرا أن الكافر يتأذى من قولنا له يا كافر تماما مثلما نقول للأعور يا أعور ليفصل القول أكثر عندما يخبر بأنّ للكافر معنيين فالأول هو ما تعارف عليه الناس بأنه "المنكر للخالق سبحانه والملحد الذي لا دين له، فهذا المعنى ليس لنا الحق في إطلاقه على أهل الكتاب. وأما الثاني فهو المنكر لرسولنا الأعظم صلى الله عليه وسلم وللإسلام، فهذا المعنى، لنا الحق أن نطلقه عليهم، وهم راضون به كذلك. ولكن لما كان المعنى الأول هو الذي يتبادر إلى الذهن مباشرة، صارت تلك الكلمة، كلمة تحقير وإهانة وأذى، زد على ذلك أنه لا اضطرار لخلط "دائرة الاعتقاد" بـ"دائرة المعاملات" وربما هذا هو ما يقصده ذلك القسم من "جون ترك". (النورسي، 2012: 374).

فالتفصيل آلية بلاغية مركزية في خطاب المناظرة؛ لبيان المراد من الكفر المعنى المتعلق بالمعاملات، وليس المعنى العقديّ.

وللوقوف على استعمال النورسي لأسلوب التقسيم يمكن التأمل في رده على استهجان بعضهم لتصرفاته مثل عدم قبول المساعدة من المحسنين والهدايا من المحبين ولا سيما أنه جرت بذلك العادة في خدمة العلم وأهله فأجابهم في أربع محطات مستعملا -أولا ثانيا ثالثا ورابعا- فكانت كافية لإقناعهم ونفي أوهامهم حيث كان جوابه كالآتي "أولا: العلم عزيز، لا أريد أن أذله.. وأريد أن أريكم أن من أهل العلم من لا يتنزل للدنيا، ولا يجعل صنعة العلم وسيلةَ العيش، وأن الطلاب ليسوا متسولين ولا شحاذين. ثانيا: أريد أن أنصح فعلا بعضَ الموظفين الذين يظهرون الإهمال والكسل في وظيفتهم، ولا يقنعون بمرتباتهم فلا تمسك تلك المرتبات أيديهم عن إكرام الضيوف. ثالثا: بعض الرؤساء الذين انقطعت مجاري وارداتهم الظالمة ينزلون إلى ظلمات الظلم بفتحهم أبواب مصاريف واسعة جدا، فأريد أن أبين لهم طريقا لسد تلك الأبواب. رابعا: أريد أن أريكم مقياسا تقيسون به من يسيح فيما بينكم ويجول، أهم يقومون بهذا العمل لأجل الملة أم لهوى أنفسهم؟ فأبين بذلك محكا بين الحيلة والحمية". (النورسي، 2012: 392).

وظف الأستاذ النورسي في هذه المناظرة أسلوبا من أساليب علم البديع وهو التقسيم والمقصود به " أن تذكر شيئاً ذا جزأين أو أكثر ثم تضيف إلى كل واحد من أجزائه ما هو له عندك " (السكاكي، 1982: 663) .

فالقسمة الرباعية التي ذكرها الأستاذ قسمة معنوية تعبّر عن صفاء سريرته ونقاء معدنه في عدم قبول الهدايا؛ منطلقا من آلية التقسيم لإقناع مخالفيه واعتراضهم على تصرفاته في رفض الإحسان والعطايا؛ ليبيّن لهم أن عزة النفس تأبى قبول الهدية؛ وهو مسلك العلماء الأتقياء ؛لأن قبول العالم للهدية طمس لقداسة العلم ؛وقد يسلب العالِم هذا العلم من قبول العطية؛ كما أن شراء الذمم باب موصل للفساد ؛ثم إن الهدية إن كانت رغبة نفسية أو من حظوظ النفس عُدّت رشوة.

فالهدية من منظور هذه القسمة معيبة؛ بل جالبة لطمس وقار العلماء، وخدش كرامتهم .

د. الإيجاز والإطناب:

كما يحضر في رسالة المناظرات أسلوب من أكثر الأساليب البلاغية التي يعتمدها أهل المناظرة والمناقشة ألا وهو أسلوب الإيجاز والإطناب والأستاذ النورسي لم يكن بدعا من هؤلاء؛ بل كان سباقا وماهرا في توظيف هذا الأسلوب حيث كان دائم التحري والتفرس في مواطن الإيجاز فيوجز فيها وينتبه إلى مواطن الإطناب فيطنب فيها ويطيل لفائدة .

ولعل حوار النورسي مع مناظريه في موضوع مدرسة الزهراء خير مثال يوضح أهمية هذا الأسلوب ودوره في التأثير والإقناع حيث كانت أجوبة الأستاذ موجزة وقصيرة تارة ومطنبة مطولة تارة أخرى (ينظر النورسي، 2012: 401-402). ويمكن جواب الأستاذ على سؤال "ما وارداتها" (مدرسة الزهراء) (النورسي، 2012: 402) خير مثال يوضح أهمية الإيجاز في الإقناع ذلك أنه أجاب السائل بكلمتين لا غير حيث قال "الحمية والغيرة" (النورسي، 2012: 402) فتبين كيف أن الأستاذ اختار الإيجاز في هذا الموضع وأجاب بكلمتين فحسب وذلك ليدفع السائل إلى الاستزادة ليجيب الأستاذ بعد ذلك بشيء من الإطناب والتطويل حيث قال "إن هذه المدرسة كنواة تتضمن -بالقوة- شجرة طوبى. فإن اخضرت بالحمية والغيرة استغنت عنكم وعن خزائنكم المنضوبة، وذلك بجذبها الطبيعي لحياتها المادية". (النورسي، 2012: 402)

وهو ما يحيلنا إلى مهارة النورسي في استبطان حال مناظره والذي بناءا عليه يخاطبه ويفصح عن أفكاره تجاهه فحينا تكون كلمات بسيطة متعارف عليها ويزيد عليها حينا آخرا وذلك لإقناع محاوره وشده إلى ما يقال في شيء من التوازن والرفق دون إقراط أو تفريط وبين إيجاز وإطناب خاصة وأن الإيجاز هو "أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط والإطناب هو أداؤه بأكثر من عباراتهم" على تعبير الجرجاني. (الجرجاني ، 1997: 124)

هـ. النداء:

يُكثر الأستاذ النورسي في مخاطبته لمناظريه في استعمال أسلوب النداء ليحرك فيهم المشاعر والعواطف الجياشة ويجرهم من أرض اليأس والقنوط جرا فيصعد بهم في سماء الأمل والرضا والطموح؛ فتراه يكره مظاهر الخنوع فيهم والتكاسل في الأخذ بأمور الدين وتعظيمه بحجة رداءة الرؤساء ويقول "فيا أيتها الرؤوس والرؤساء، إياكم والتواكل الذي

هو عين التكاسل، ولا تسوفوا في الأعمال فيحولها بعضكم إلى بعض، اخدمونا بأموالنا التي في أيديكم وبعقولنا التي لديكم؛ فقد أخذتم أجرتكم باستخدامكم هؤلاء المساكين... فهذا أوان الخدمة والعمل". (النورسي، 2012: 391).

فالنداء تنبيه لشارد العقل أو مشغول الذهن و الوجدان؛ ومن ثم فهو: إنشاء نسبة النداء بحرف يقوم مقامها ليُقبل المخاطب به على المتكلم به بقلبه، وليس مقصوداً بذاته، وإنما ينادى؛ ليبدأ بكلام بعده، أو ليعلم حضوره أو غيبته، أو لنسبة صفة إليه ". (الجرجاني، 1997: 103). فالنداء يقوم على وظيفة ذهنية هي التنبيه؛ ولعل ما يسوغ لهذه الوظيفة العقلية ما يعتري الإنسان من النسيان والسهو والغفلة والشرود .

فالمنادى الرئيس المسؤول ؛والأصل أن تتم المخاطبة وفق الهمزة وأيّ لنداء القريب، ولكن النورسي وظف (يا أيتها) لإنزال القريب منزلة البعيد؛ ذلك أن الرئيس في غفلة وشرود ذهن عن القيام بواجب الخدمة المقدسة المسندة إليه .

ولما كان التواكل والتكاسل من صفات المسؤولين ناداهم بغير(الهمزة وأيّ) لبعدهم عن جادة الصواب وهي الخدمة والعمل الجاد .

ونراه في موضع آخر ينفر من أحوال اليأس المهيمنة على مخاطبيه فيطلق كلماته ويبث طموحاته إلى الجيل القادم مناديا "يا أيتها القبور المتحركة برجلين اثنتين، أيتها الجنائز الشاخصة! ويا أيها التعساء التاركون لروح الحياتين كلتيهما.. وهو الإسلام، انصرفوا من أمام باب الجيل المقبل، لا تقفوا أمامه حجرِ عثرةٍ، فالقبور تنتظركم.. تنحوا عن الطريق ليأتي الجيل الجديد الذي سيرفع أعلام الحقائق الإسلامية عاليا ويهزها خفاقة تتماوج على وجوه الكون". (النورسي، 2012: 383)

إن في هذا النداء من الإقناع ما لا يخفى ؛بيان ذلك أن المخاطَب في حالة من الركود والسكون والعطن والشرود؛ فناداه الأستاذ بأداتيْ (يا أيتها) لتحريك الهمم النائمة والنفوس المتقاعسة عن النهوض بالأمة نحو الإسلام؛ وكلها خصائص تؤكد البعد عن الأصل؛ ولهذا أنزل هؤلاء منزلة البعيد الشارد الساهي عن جواهر الأمور.

فالنداء خرج عن دلالته الأصلية؛ وهي التنبيه إلى دلالة التحسر على واقع أشبه بواقع الأموات الحية (الجنائز الشاخصة).

خاتمة:

في ختام هذه الرحلة العلمية الماتعة في رحاب رسالة المناظرات لبديع الزمان النورسي نخلص إلى بعض النتائج من أهمها:

- أن للمناظرة في مؤلفات بديع الزمان النورسي أهمية بالغة، ومكانة مرموقة تعكس وعي المؤلف بضرورة المحاورة والمناقشة الهادئة لحل ما يعرض للأمة من تحديات ومشكلات فكرية وسياسية ودينية.
- نبغ النورسي في فن الجدل والمناظرة والذي شغف به في سن مبكرة؛ ليتخذه بعد ذلك سبيلا في معالجة واقع أمته الذي لا يخلو من الخلافات والاختلافات؛ متحديا بذلك كل أنماط الجمود والركود الذي يعاني منه الوعي الديني حينئذ.
- أظهر صاحب رسالة المناظرات قدرة عجيبة ومهارة فائقة في مناظرة محاوريه من رؤوس القبائل في شرق تركيا؛ ذلك أنه استطاع أن يقدم لهم إجابات شافية كافية وجامعة معتمدا في ذلك على أدوات وأساليب بلاغية متنوعة سخّرها للرد على مناظريه وإفحامهم.
- لم يخل أسلوب النورسي في مناظرة رؤوس القبائل الشرقية من استعمال المترادفات، وضرب الأمثال، واختيار الكلمات الجزلة ذات القوة الأسلوبية العالية، وضروب من التعبير كالإخبار والاستفهام والاستنكار والنداء، وتلك هي مميزات الأسلوب الخطابي الذي لجماله ووضوحه شأن كبير في التأثير والوصول إلى قرارة النفوس بالإفحام والإقناع ولعل الأستاذ في ذلك كان متأثرا ببلاغة القرآن الكريم.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم ، مصحف المدينة النبوية للنشر الحاسوبي، مجمع الملك فهد لطباعة القرآن بالمدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية .

1. آق كوندوز (أحمد)، (يوليو 2012م)، **دعوة رسائل النور هل هي حركة؟ أم جمعية؟ أم جماعة؟**، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، عدد 06.
2. أورخان (محمد علي)، (2011م)، **رجل القدر في حياة أمة**، د.ط.
3. البخاري (محمد بن إسماعيل)، (1998م)، **صحيح البخاري**، دار الحديث، مصر.
4. البوطي (سعيد رمضان)، (2006م) حلقة دراسية: **الإدراك الروحي بين التصوف والنورسي**، مركز رسائل النور للبحوث، سوز للطباعة والنشر.
5. الجرجاني (عبد القاهر)، (2005م)، **أسرار البلاغة**، إحياء التراث العربي.
6. الجرجاني (محمد بن علي بن محمد) (1418هـ- 1997م) ، **الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة**، تحقيق عبد القادر حسين، مكتبة الآداب ، القاهرة.
7. الجويني (إمام الحرمين)، (1933هـ-1979م)، **الكافية في الجدل**، تقديم وتحقيق فوقية حسين محمود ، عيسى البابي الحلبي وشركاه بالقاهرة .
8. الزناد (الأزهر)، (1992م)، **دروس في البلاغة العربية نحو رؤية جديدة**، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع –الدار البيضاء- بيروت .
9. السكاكي (أبو يعقوب)، (1982م) ، **مفتاح العلوم**، الطبعة الأولى، مطبعة دار الرسالة، بغداد.
10. شاهينر (نجم الدين)، (2012م)، **الشهود الأواخر شهادات ومشاهدات عن بديع الزمان سعيد النورسي**، ترجمة مأمون رشيد عاكف، دار سوزلر للنشر، القاهرة.
11. الصالحي (إحسان قاسم)، (2015م)، **نظرة عامة عن حياة بديع الزمان سعيد النورسي**، دار سوزلر، القاهرة.
12. الصالحي (إحسان قاسم)، (2016م)، **رحلتي مع رسائل النور**، إماك للنشر، إسطنبول.
13. عباس (فضل حسن)، (1997م)، **البلاغة فنونها وأفنانها**، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن.
14. عبد الرحمان (طه)، (يناير 2010م)، **فصل المقال بين فيما بين فلسفة البشر وحكمة القرآن من اتصال عند الحكيم بديع الزمان**، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، عدد 01.
15. العزاوي (أبو بكر)، (2014م)، **النورسي رجل الحوار والإقناع أو فصل المقال فيما بين الحوار والحجاج والاختلاف من اتصال**، مجلة النور للدراسات الفكرية والحضارية، عدد10.
16. العلوي (يحي بن حمزة) ، (2002م) ، **كتاب الطراز** ، تحقيق عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى ، المكتبة العصرية ، صيدا- بيروت .
17. النجار (عبد المجيد)، (2006م)، **البعد الأخروي في رسائل النور**، مركز رسائل النور، إسطنبول.
18. النورسي (بديع الزمان سعيد)، (2012م)، **الكلمات**، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، القاهرة.
19. ـــ، (2012م)، **المكتوبات**، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، القاهرة.
20. ـــ، (2012م)، **الشعاعات**، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، القاهرة.

21. ــ، (2012م)، **اللمعات**، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، القاهرة.
22. ــ، (2012م)، **صيقل الإسلام**، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، القاهرة.
23. ــ، (2012م)، **المثنوي العربي النوري**، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، القاهرة.
24. ــ، (2012م)، **سيرة ذاتية**، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، القاهرة.
25. ــ، (2012م)، **الملاحق**، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، القاهرة.
26. ــ، (2012م)، **إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز**، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، القاهرة.
27. الهاشمي (السيد أحمد)، (د.ت)، **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، المكتبة العصرية، بيروت.
28. واحدة (شكران)، (2010م)، **الإسلام في تركيا الحديثة**، ترجمة محمد فاضل، د،ط.

29. Ahmed Akgündüz, (2013) **Bediüzzaman said Nursinin ilmi şahsiyeti ve icazetnameleri**, osmanlı arıştıraları vakfı, Istanbul.

30 Abdükadir badıllı, (2012) **Mufassal Târihçe-i Bediüzzaman**, nesil yayınları, Istanbul.